

صاحب الجلالة يوجه رسالة إلى ندوة الامام مالك

فاس ــ افتتحت بقاعة المؤتمرات ندوة الامام مالك بن انس بحضور 300 عالم ومفكر اسلامي من المغرب والأقطار الاسلامية، وبهذه المناسبة تلا الأستاذ أحمد ابن سودة المستشار الملكي الرسالة التي وجهها جلالة الملك الحسن الثاني إلى الندوة، وهذا نصها :

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه

(الطابع الشريف، بداخله الحسن بن محمد بن يوسف بن الحسن الله وليه)

(فالله خير حفظا، وهو ارحم الرّحمين)

حضرات السادة العلماء المكرمين

منذ بضعة أيام حققنا بمشيئة الله وعونه أملا عزيزاً علينا وحلماً طالما راودنا، وذلك بتدشين اكاديمية المملكة المغربية التي نأمل أن يصبح المغرب بوجودها مركز إشعاع للعلم والفكر والحضارة البشرية بجميع مقوماتها وابعادها.

و لم تصرفنا مشاغلنا اليومية ومشاكلنا الظرفية عن تكريس بعض جهدنا واهتمامنا لاقامة صرح تلك المؤسسة العتيدة، علما منا بأن عظمة الأمم والشعوب لا تقاس بضخامة بنيانها، ولا بسعة عمرانها، ولا بكثرة سكانها، ولكن بعدد ما انجبته للانسانية من عقول مبتكرة، وأفكار نيرة، وقيادات روحية تشع حكمة ونورا، وتبقى على مر الزمان منارات تضيء الطريق للبشرية، وتأخذ بيدها نحو السعادة الأبدية.

وان من بواعث رضانا، ودواعي غبطتنا وارتياحنا أن تقام على أرضنا هذه الطيبة الطاهرة وفي هذا الظرف بالذات ندوة خاصة بالامام مالك بن أنس رضي الله عنه، إحياء لذكراه، وتخليداً وتذكيراً لأهله بفضله، وتعريفا بمقامه الرفيع بين شبابنا المتطلع إلى تراثه الروحي العريق، وذلك بتسليط الأضواء بما سيلقى من محاضرات وما سيعقبها من مناقشات، على جميع أعماله العظيمة الخالدة التي ضمنت للسنة النبوية البقاء والنقاء، والصحة والصفاء، وذلك بما احتواه كتابه «الموطا» من صحيح الحديث وثابت الشمائل، مما جعل تلميذه الامام الشافعي رضي الله عنه يقول : «ليس بعد كتاب الله أصح من موطأ الامام مالك».

وما أغناه ــ رضي الله عنه ــ عن التعريف والتذكير في بلد كالمغرب وبين قوم كالمغاربة، فقد اختلط مذهبه العظيم بحياته منذ ان اعتنقناه، فلا يمر يوم دون ان نمارس فيه جملة من تعاليمه، ولا يتم أكل ولا شراب ولا صلاة أو صيام ولا زواج أو طلاق ولا معاملة دون الرجوع إليه والاهتداء بما اخرجه فيه من بيع وشراء وإعارة وكراء ومعاوضة ومناقلة ومقاصة ومحاسبة وشركات، إلى غير ذلك من المعاملات «فالدين المعاملة».

وان انعقاد هذه الندوة في مثل ظروفنا الراهنة لينطوي على اكثر من مغزى، فقد الهم الله أجدادنا المنعمين إلى اختيار مذهب الامام مالك ونشره وحده دون غيره في طول البلاد وعرضها، حفظاً لوحدة البلاد المذهبية، ودرأً لكل ما يحمله تعدد المذاهب والنحل من بذور الشقاق والخلاف، فبرهنوا بذلك على بعد نظرهم وعمق محبتهم لشعوبهم، ورغبتهم في اسعادها بدفء الوحدة وما ينتج عنها من قوة ومنعة، ولو صدروا في سلوكهم عن أنانية أو حب للتسلط لعملوا بمبدإ «فرق تسد»، ولأصبحت بلادنا طوائف وشيعا تتقاتل فيما بينها وتتناحر،

ولما رأينا اليوم هذا التماسك والتلاحم بين أفراد شعبنا في مواجهة الغزو الرامي إلى تمزيق وحدتنا الترابية وعرقلة مسيرتنا الحضارية.

أما المغزى الثاني من اقامة هذه الندوة فهو تأكيد تمسكنا بالسير في الطريق الوسط التي اختطها لنا امامنا مالك رضي الله عنه، عملا بقوله تعالى : ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً، لتكونوا شهداء على الناس، ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ صدق الله العظيم، فتجنبنا باتباع مذهبه الافراط والتفريط والانحراف عما يمليه العقل السليم والطبع القويم، فقد كان رضي الله عنه في حياته مثالا للتوسط والاعتدال، مقتديا باخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم وشمائله.

ورغم اعتداله ودماثة اخلاقه، فقد كان درعاً متيناً للعقيدة ضد التحريف والتزوير والتأويل المغرض، ونبراساً يضيء الطريق أمام الخلفاء والأئمة والعلماء في مملكة الاسلام، فكان المفتي الدقيق، والشارح الواضح والمؤول الصادق الأمين، ولم يبتعد في كل فتاواه وتعاليمه عن المنطق السليم، والخلق المستقيم، مما جعل غالبية المسلمين تطمئن إليه، وتأتم بهديه، وهذا مغزى آخر نستخلصه من سيرة هذا الرجل العظيم.

ومما يجب استلهامه كذلك من سيرة الامام مالك ثباته — رضي الله عنه — على المبدأ ومطابقة اقواله لأفعاله، فقد كان شجاعا في نصرة الحق، قوي الايمان بالله، واضح المواقف، لا يخشى في الله لومة لائم، فلم يداهن قويا، ولم يتملق طاغية، ولم يتنازل عن شروي نقير من مبادىء العقيدة وأوامر الله.

وقد امتحن من أجل ذلك في ايمانه أيما امتحان، وضرب وعذب واهين في سبيل الله، وطيف به في شوارع المدينة، وخلعت ذراعه ليتنازل عن رأيه ويفتي بغير ما انزل الله، ويأذن بطلاق المكره، فأبى وصبر على الأذى، وخرج من محنته — التي كان يراد بها اذلاله — اعز وأكرم على الله، وأجل وأعظم في عيون قومه، وفي ضمير الأمة الاسلامية إلى عصرنا هذا.

وصدق الله وعده : ﴿ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾.

وذهب الامام مالك وبقيت صيحته الشهيرة : «من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا مالك بن أنس، طلاق المكره لا يجوز» بقيت تتردد اصداؤها بين شعاب المدينة وتكبر وتعظم لتشمل ارجاء المعمور، ولتبقى شاهداً حياً مدى التاريخ على رفض الظلم والانتصار للحق.

هذا عن جانب الايمان والجهاد والثبات في شخصية الامام مالك رضي الله عنه.

ولو أردنا تطبيق المقاييس العلمية العصرية على الجانب العلمي لهذا الرجل الفذ لبرزت لنا شخصية عبقرية ثاقبة الفكر، متعددة الأبعاد، واضحة المنهج، شديدة العمق والانضباط، فهو لم يكتف باثبات سند الحديث وتجشم المشاق في تقصي رواياته إلى نبعه الأصلي، بل تعدى ذلك إلى تحليل شخصيات رواة الأحاديث، والتأكد من استقامتها وصدقها ورسوخها في العلم، وقد افضى به اجتهاده ودقته العلمية إلى النزول إلى شوارع المدينة المنورة لدراسة البيئة الاجتماعية التي عاش فيها الرسول صلوات الله عليه وسلامه فدرس عادات أهل دار الهجرة وتقاليدهم التي انطبع سلوك أهلها بالسلوك النبوي، وذلك حتى يطمئن إلى صحة ظروف بعض الأحاديث، فأوحى بذلك للعلامة المغربي عبد الرحمن ابن خلدون بالمنهج العلمي التجريبي الذي نصح به لتصحيح وقائع التاريخ القديمة بالرجوع إلى البيئات الاجتماعية التي وقعت فيها.

ولم يكتف ــ رضي الله عنه ــ بكل ذلك رغم عظمته، فترك باب الاجتهاد مفتوحاً للأئمة من بعده، وذلك بسنه استنباط الأحكام فيما كان يستجد من قضايا يفرضها اتساع رقعة الاسلام بالقياس على ما ورد في السنة وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، فضمن بذلك المرونة والشمولية للمبادىء والأحكام الاسلامية، وقطع الطريق على السطحية والتزمت والركود.

وقد اكتشف الغرب المسيحي ــ بعد ألف عام من وفاة الامام مالك ــ ما لمذهبه الكامل من قوة وثراء، ودقة في تنظيم أحوال المجتمع البشري ابدع نظام، فاستعاروا منه الشيء الكثير، وخرجوا به على العالم وكأنه من صنع ايديهم وعبقرية مفكريهم.

ورغم ما اسداه الامام مالك للاسلام من خدمات جلّى، وما تحمله في سبيل الدفاع عن مبادئه من اذى، فقد خالجته في أواخر حياته شتى الشكوك والمخاوف من أن يكون قد افتى برأيه سهواً أو خطأً بما يخالف الكتاب والسنة، قال معن بن عيسى : «سمعت مالكاً يقول :(انما أنا بشر أصيب واخطىء، فانظروا في رأيي، فما وافق السنة فخذوا بها)».

وقال ابن قعنب، وهو أحد رواته البارزين حين عاده وهو على فراش موته : «جلست إليه فرأيته يبكي، فقلت يا أبا عبد الله ما الذي يبكيك ؟ فقال : يابن قعنب «وما لي لا أبكي، ومن احق بالبكاء مني، والله لوددت اني ضربت بكل مسألة افتيت فيها برأيي بسوط سوط وقد كانت لي السعة فيما سقت إليه، وليتني لم افت بالرأي»».

وان دل هذا على شيء فانما يدل على شفافية في الروح، وقرب من الملكوت الاعلى واشراق داخلي لا يحظى به الا الراسخون في العلم من أولياء الله والصالحين «ألا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون».

واذا تدبرنا حديث الرسول صلى الله عليه وسلم «يبعث الله على رأس كل مئة سنة لهذه الأمة من يجدد امر دينها» وجدناه ينطبق انطباقا كاملا على الامام مالك رضي الله عنه، فقد ولد سنة 93 من الهجرة وتوفي سنة 179، فعلا بعلمه وفضله قرناً كاملا من الزمان، واخذ عنه العديد من العلماء والفقهاء من المشارقة والمغاربة.

وقد حدث عنه أمم لا يكادون يحصون، ومع ذلك لم يجلس للفتوى حتى شهد له سبعون من جلة العلماء بأنه اهل لذلك، ومن شهادات أهل عصره له ما قاله تلميذه الامام الشافعي «اذا ذكر الأئمة، فمالك النجم الثاقب، وما أحد أمن عليّ من مالك»، وماكان أحد في زمانه ابرز منه ولا اعلم، فهو بحق مبعوث هذه الأمة الأول بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

معشر العلماء المبجلين

إن حيوية الأمة الاسلامية وتداخل مجتمعاتها مع غيرها، وتفاعلها مع حضارات وثقافات وديانات ومذاهب، كانت إلى أمد قريب تفصلها عنها المسافات المادية والمعنوية، وان التطورات والتغيرات السريعة التي طرأت على المجتمع البشري في السبعين سنة الماضية، كل هذا يفرض علينا اسلوباً جديداً في التعامل مع تراثنا الحضاري بجميع جوانبه، اسلوبا يتيح للمسلم والمسلمة أن يندمجا في المجتمع التكنولوجي الذي يعيشان فيه وينسجما مع هياكل الحضارة الحديثة في اطار من الأخلاق الاسلامية السامية، ودون شعور بالاغتراب والاستلاب أو بالتناقض والانفصام أو بالدونية والاثم.



معشر العلماء المبجلين

فلتكن ندوتكم هذه فرصةً للبحث عن ذلك الأسلوب، ومناسبةً للتصدي لهذا التحدي الحضاري الجديد وذلك بدراسة وتحليل قضايا العصر واتخاذ مواقف بناءة منها على ضوء منهجية الامام مالك، مواقف تتسم بالايجابية والاقناع والانسجام مع عقيدتنا وبيئتنا وطبائعنا، وتكون امتداداً طبيعياً لتاريخنا وحضارتنا واسهاماً من مفكرينا في تحسين نوعية العيش ونماذج السلوك في مجتمعنا، بل وحتى في المجتمعات الانسانية الأخرى.

وهذه المواقف يجب ان تكون قابلة للبلورة حتى تصبح بديلا قويا وواضحا وجذابا لما هو مطروح في الأسواق من شعارات أجنبية عنا افرزتها ظروف تاريخية واجتماعيه لم نعشها وفي مجتمعات بعيدة كل البعد عن مجتمعنا.

حضرات العلماء المبجلين

واننا لعلى يقين من أنكم ستواجهون هذا التحدي باقدام وايمان، ومن انكم ستفوزون بهذا الرهان، فكل ما تعج به اسواق الكتب والصحف والندوات وأمواج الأثير من شعارات الحرية والديمقراطية والاشتراكية والعدالة والمساواة وحقوق الانسان، ما هو الا بضاعتنا ردت إلينا معنونة بشتى العناوين.

وليست هذه أول مرة يطالب فيها علماء الاسلام بالتكيف بوضع جديد، فقد كان لهذا الوضع في تاريخ أمتنا ما يوازيه، ولم يكن ذلك ابعد كثيراً من عصر إمامنا مالك، فقد جاء بعده من العلماء من استخدموا منهجه وانتهوا إلى غير ما انتهى إليه من نتائج، فكانوا يعلنون عدم اتفاقهم جهاراً بقولهم المشهور «وإن قالها مالك فلسنا له بمماليك»، ولم يجد أحد في ذلك غضاضة ولا انتقاصا من مقام الامام العظيم، ذلك ان روح مذهبه قائمة على الاجتهاد فيما لم يرد في الكتاب أو السنة أو الاثر.

والاجتهاد هو مفتاح المسلمين للتكيف مع كل تقدم أو تطور فكري أو مادي في العالم، إلى ان يرث الله الأرض ومن عليها.

وحاشا ان يكون التحجر والجمود من شيم الاسلام، وهو بريء من كل من يقفون في وجه التقدم باسم الاسلام، فحتى في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وجد من أساء فهم الاسلام من ذوي الأمزجة السوداوية الجامدة، واعتقدوا انه جاء للتحريم والتضييق والترهيب، فحاجهم الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز بقوله : ﴿قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق﴾.

ونحن على يقين من ان بركة الامام مالك ستحل بينكم، وتشمل ندوتكم هذه، وانكم ستخرجون منها موفقين ان شاء الله ومحملين بما يملأ مجلدات من الأبحاث والدراسات والاكتشافات، تضاف إلى تراثه الخالد وتبقى مرجعا حافلا لدارسيه وشاهدا على فخرنا واعتزازنا بالانتماء إلى مذهبه وتشبثنا بمبادئه السامية ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمومنون﴾ صدق الله العظيم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

حرر بالقصر الملكي بالرباط في يوم الجمعة 9 جمادى الثانية عام 1400 الموافق 25 ابريل سنة 1980.